الإمبراطورية الأميركية
من عام ١٩٩٢ حتى الزمن الراهن

نؤكد أن ما من أمة تستطيع أن تتحمل طويلاً نصف جمهورية ونصف إمبراطورية، ونحذر الشعب الأمريكي من أن الإمبريالية في الخارج ستقود بسرعة وحتماً إلى الاستبداد في الداخل.

البرنامج الوطني للحزب الديمقراطي الأمريكي عام ١٩٠٠ .

عقب قصف العراق في عام ١٩٩١ انتهى الأمر بالولايات المتحدة إلى إقامة قواعد عسكرية في المملكة العربية السعودية، والكويت، والبحرين، وقطر ودولة الإمارات العربية المتحدة.

وعقب قصفها يوغوسلافيا في عام ١٩٩٩ انتهى الأمر بالولايات المتحدة إلى إقامة قواعد عسكرية في كوسوفو، وألبانيا، وبلغاريا، ومقدونيا، وهنغاريا والبوسنة وكرواتيا.

عقب قصفها أفغانستان في المدة ٢٠٠١ - ٢٠٠٢ انتهى الأمر بإقامة الولايات المتحدة قواعد عسكرية في أفغانستان، وباكستان، وكازاخستان، وأوزبكستان، وطاجيكستان، وكيرغستان، وجورجيا، واليمن وجيبوتي. أما بعد قصف العراق وغزوه في عام ٢٠٠٣ انتهى الأمر بالولايات المتحدة إلى احتلال العراق.

هذه ليست سياسة خارجية محكمة التدبير، وبالتأكيد ليست سياسة سرية. والرجال الذين يحكمون الإمبراطورية الأميركية لا يشعرون بالإحراج بسهولة.

بهذه الطريقة تنمو الإمبراطورية قاعدة في كل مكان، جاهزة لاستخدامها في القضاء على أي تهديد يستهدف الحكم الإمبريالي، سواء أكان حقيقياً أو متخيلاً.

بعد مرور ثمانية وخمسين عاماً على انتهاء الحرب العالمية الثانية، مازالت هناك للولايات المتحدة قواعد كبيرة في ألمانيا واليابان وبعد مرور خمسين عاماً على انتهاء الحرب الكورية مازال عشرات الآلاف من القوات المسلحة الأمريكية يرابطون في كوريا الجنوبية.

لقد أعلن وزير الخارجية الأمريكي كولن باول في شهر شباط ٢٠٠٢ «أن أمريكا ستظل لها مصلحة مستمرة ووجود مستمر في آسيا الوسطى من نوع لم نكن نحلم به سابقاً»[١] في وقت لاحق من ذلك العام أعلنت وزارة الدفاع الأمريكية «أن العسكريين الأمريكيين ينتشرون حالياً في مواقع تفوق ما انتشرت فيه عبر التاريخ»[٢].

ولا يقل عن ذلك صراحة الإعلانات الصادرة بدءاً من أوائل التسعينيات من القرن العشرين - والتي صادف صدورها الموت المحوري للاتحاد السوفييتي - والمستمرة حتى الوقت الراهن، مهللة برغبة واشنطن ووسائلها ونيتها بالسيطرة على العالم، في حين أنها تؤكد للعالم المقاصد النبيلة وراء هذه الحملة. إن هذه الإعلانات كانت تصدر بانتظام في أوراق سياسية منبثقة من البيت الأبيض والبنتاغون، ومن لجان عينتها الحكومة، ومن مجالس الفكر المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمؤسسة الأمنية القومية.

ها هنا صوت الإمبراطورية في عام ١٩٩٢:

«هدفنا الأول هو أن نمنع عودة ظهور منافس جديد سواء على أرض الاتحاد السوفييتي السابق أو في مكان آخر، يشكل تهديداً للنظام كالذي شكله سابقاً الاتحاد السوفييتي.. ينبغي لنا أن نحسب حساباً كافياً لمصالح الدول الصناعية المتقدمة لزجرها عن تحدي قيادتنا أو السعي لقلب النظام السياسي والاجتماعي الذي أقمناه.. يجب أن نحافظ على الآليات لردع المنافسين الذين يُحتمل قيامهم لمنعهم من الطموح إلى دور أكبر إقليمياً أو عالمياً»[٣].

-١٩٩٦: «سننخرط يوماً ما في أهداف أرضية - سفن، طائرات، أهداف في الأرض»، من الفضاء.. سنحارب في الفضاء. سنحارب من الفضاء وسنحارب إلى الفضاء[٤].

-١٩٩٧: «فيما يتعلق بالسيطرة على الفضاء، نحن نمتلكها، نحن نحبها، وسنحتفظ بها»[٥].

-٢٠٠٠: «الجاهزية العسكرية الجديدة المتبعة تعني المحافظة على التفوق العسكري على جميع المنافسين المحتملين والاستعداد الآن لمنافسات عسكرية في المستقبل حتى وإن لم يكن بالإمكان حتى الآن تعريفها، كما أن تحديد موعد وصولها هو مسألة تكهن.. إن الاحتياجات العسكرية أصبحت منفصلة عن التقديرات النهائية للتهديدات الأمنية الفعلية. الحروب العامة والإمكانيات العامة تعتبر أساساً للتخطيط.. أما الجوانب المحددة لسيناريوهات التهديد الحقيقي فقد أصبحت ثانوية بالنسبة إلى الحاجة العامة لإظهار القدرة العسكرية الأمريكية عبر الكرة الأرضية»[٦].

-٢٠٠١: «إن وجود القوات الأمريكية في المناطق الحرجة حول العالم هو التعبير المنظور عن مدى مكانة أمريكا كقوة عظمى وكضمانة للحرية والسلام والاستقرار»[٧].

-٢٠٠١: «إذا اكتفينا بمجرد رؤيتنا للعالم أن تنطلق، واحتضناها كلياً، ولم نحاول أن نظهر مهارتنا وربط الحلول الدبلوماسية الحاذقة بهذا الشيء، بل اكتفينا بشن حرب شاملة ضد الطغاة، أظن أن وضعنا سيكون جيداً جداً، وأن أولادنا سيصدحون بأغنيات عظيمة عنّا بعد سنوات من الوقت الحاضر»[٨].

-٢٠٠١: «إن التدقيق في الوضع النووي» لإدارة بوش وتوجيه الجهات العسكرية لإعداد خطط طوارئ من أجل استخدام الأسلحة النووية ضد سبعة بلدان على الأقل - الصين، روسيا، العراق، إيران، كوريا الشمالية، ليبيا وسورية - وإعداد أسلحة نووية أصغر لاستعمالها في مواقف معينة على ساحة المعركة[٩].

-٢٠٠٢: أصدر البيت الأبيض في شهر أيلول «استراتيجيته للأمن القومي» التي أعلنت: «إن قواتنا ستكون قوية بما فيه الكفاية لثني خصومنا المحتملين عن متابعة بناء قوة عسكرية على أمل التفوق على قوة الولايات المتحدة أو التعادل معها.. ستعمل أمريكا ضد أية تهديدات ناشئة من هذا القبيل قبل أن يكتمل وجودها.. يجب أن نردع أي تهديد وندافع عن أنفسنا ضده قبل انطلاقه.. لا يمكننا السماح لأعدائنا بتوجيه الضربة الأولى لإحباط أو منع مثل هذه الأعمال العدائية من جانب خصومنا ستقوم الولايات المتحدة إذا اقتضت الضرورة بتوجيه الضربة الاستباقية.

إن الضربة الاستباقية هي في جوهرها الأساس العقلاني الذي استخدمته اليابان الإمبريالية بدون أن تكون شاعرة بالخوف كمسوّغ لهجومها على بيرل هاربور في عام ١٩٤١، كما أن ألمانيا النازية، في ذريعة كاذبة، استخدمتها لتسويغ غزوها بولندا في عام ١٩٣٩.

كان معنى «استراتيجية الأمن القومي» في نظر أحد المراقبين كالتالي:

«إنها تصدم طموحات الذين كانوا يتأملون أن يسير العالم نحو نظام من القانون الدولي يتيح التوصل إلى حلول سلمية للنزاعات القائمة، عبر المواثيق والمحاكم. عوضاً عن ذلك، أعلنت قوة وحيدة تزدري بالمواثيق والمحاكم أنها تنوي السيطرة على العالم عسكرياً وأن تتدخل بضربات استباقية عندما يقتضي الأمر لإحباط التهديدات.. إن الذين يرغبون في عالم خال من تفوق قوة واحدة، عالم تستخدم فيه المواثيق والقوانين لتسوية النزاعات سيشرعون في نقاش جديد، حول كيفية التعامل مع أمريكا الامبريالية»[١٠].

لقد تسممت دولة الأمن القومي الأمريكي بفكرة السيطرة إلى حد أنها، عندما أعلنت في تشرين الثاني ٢٠٠٢ عن تشكيل مجموعة للاهتمام بالشؤون العامة ستسافر إلى ساحات المعارك «للتفاعل مع الصحفيين، ولمساعدة القادة العسكريين، ولإرسال الأخبار والصور إلى مقر القيادة العليا لتوزيعها ونشرها» وصفت هذه العملية بأنها محاولة «للسيطرة الإعلامية»[١١].

انتهت الحرب الباردة. عاشت الحرب الباردة

إنه في الحقيقة لأمر ملفت للانتباه أن حكومة الولايات المتحدة مازالت في القرن الواحد والعشرين ماضية في إلقاء كميات هائلة من المتفجرات البالغة القوة على رؤوس أناس أبرياء وعُزّل. لم يكن المفروض أن تسير الأمور على هذا النحو.

في منتصف الثمانينيات من القرن العشرين شكلت إصلاحات ميخائيل غورباتشوف بداية النهاية للدولة البوليسية السوفييتية. وفي عام ١٩٨٩ سقط جدار برلين، والشعوب في كل أنحاء أوروبا الشرقية احتفلت فرحة «بيوم جديد». عندئذ انضمت الولايات المتحدة إلى هذا الاحتفال بغزو بنما وقصفها، بعد مرور أسابيع فقط على سقوط جدار برلين. في الوقت ذاته كانت الولايات المتحدة تتدخل بدون خجل في الانتخابات التي جرت في نيكاراغوا لإلحاق هزيمة بحكومة يسارية.

عقب ذلك وبسرعة أفرجت جنوب أفريقيا عن نلسون مانديلا وبدأ نظام الأبارتيد (الفصل العنصري) يتهاوى، وقبل انتهاء عام ١٩٩٠ أجرت جمهورية هاييتي أول انتخابات حرة في تاريخها، واختارت رجلاً صادقاً في تقدميته رئيساً لها. بدا آنذاك أن أي شيء صار ممكناً، وانتشر التفاؤل كانتشار التشاؤم في وقتنا.

غير أنه عندما تحررت بلغاريا وألبانيا «من القبضة الشيوعية» على حد تعبير الإعلام الأمريكي تجرأتا على انتخاب حكومتين غير مقبولتين لدى واشنطن، فسارعت واشنطن للتدخل لإسقاط هاتين الحكومتين.

في المدة ذاتها، كانت الولايات المتحدة تقصف العراق وشعبه، على مدى أربعين نهاراً وليلة بدون رحمة، وبدون سبب وجيه أو صادق، حدث ذلك تحقيقاً لأملنا في إيجاد عالم مختلف وأفضل.

ولكن القادة الأمريكيين لم يكتفوا. ففي عام ١٩٩٣ انطلقوا لمهاجمة الصومال، في محاولة لإعادة ترتيب الخارطة السياسية لذلك البلد بواسطة مزيد من القصف والقتل.

لقد تدخلوا لإسقاط حركات انشقاقية في البيرو، والمكسيك، وكولومبيا، والاكوادور، وكأنها الحرب الباردة في خمسينيات القرن العشرين في أمريكا اللاتينية، والستينيات، والسبعينيات، والثمانينيات، مازالت تفعل فعلها في التسعينيات وهي مستمرة في القرن الجديد.

حدث في الجزء الأخير من تسعينيات القرن العشرين أن انخرطت واشنطن في تدخل خطير في انتخابات البلدان التي كانت ذات يوم جزءاً من المحيط السوفييتي: روسيا، ومنغوليا، والبوسنة.

في عام ١٩٩٩ قصفت الولايات المتحدة شعب الصرب وكوسوفو على مدى ٧٨ يوماً بدت أنها بدون نهاية، كخاتمة لخطة واشنطن العامة لتفتيت جمهورية يوغسلافيا الاتحادية الاشتراكية التي كان يطلق عليها وصف «الأخيرة من الشيوعيين»[١٢].

مرة أخرى في خريف عام ٢٠٠١ تدخلت تدخلاً واسعاً وعلنياً بانتخابات جرت في نيكاراغوا للحيلولة دون فوز اليسار.

في الوقت ذاته كانت تقصف أفغانستان، والاحتمال الأكبر هو أن هذا القصف أدى إلى قتل أعداد من المدنيين الأبرياء يفوق عدد الذين قتلوا في الولايات المتحدة بتاريخ ١١ أيلول ٢٠٠١[١٣]، كما أدى القصف إلى إزهاق أرواح عدد لا يحصى من «المتقاتلين» (أي كل شخص كان يدافع عن الأرض التي يعيش عليها ضد الغزو). إن معظم الذين وصفوا بأنهم «إرهابيون» من جنسيات أجنبية وكانوا مقيمين في ذلك الحين في أفغانستان، من ضمنهم أولئك الذين تدربوا في معسكرات القاعدة، وكانوا قد قدموا إلى هناك لمحاربة القوات السوفييتية ومساعدة حكومة طالبان في حربها الأهلية الأخرى. بالنسبة لهم كانت هذه بعثات دينية لا علاقة لها بالإرهاب ولا بالولايات المتحدة. ومن بين آلاف ضحايا الغزو الأمريكي، لم يكن واحد تم تعريفه بأنه على علاقة بأحداث ذلك اليوم المأساوي. إن إرهابيي ١١ أيلول قد اختاروا أبنية

رمزية لمهاجمة الولايات المتحدة، وبالتالي اختارت الولايات المتحدة بلداً رمزياً للانتقام[١٤].

وفي حين أن واشنطن استمرت في وصف أفغانستان بالتوحش في عام ٢٠٠٢، فإنها وجدت الوقت الكافي لتقديم دعم لا غنى عنه لمؤامرة ترمي إلى إسقاط (هوغو شافيز Hugo Shavez) وحكومته الشعبية في فنزويلا بعد أن كان شافيز قد أوضح وضوحاً كاملاً أن فنزويلا ليست مستعدة أن تكون قاعدة أجنبية للإمبراطورية[١٥].

خلال كل هذه الأعوام استمرت الولايات المتحدة في إحكام قبضتها لخنق كوبا. وظلت بعد قرن من الاحتلال الإمبريالي ترفض إخلاء قاعدة غوانتانامو في كوبا، بل حولتها في عام ٢٠٠٢ إلى جزيرة شيطان عصرية وسجن غير شرعي وكريه للرجال والعديد من الأطفال الذين خطفوا من أماكن مختلفة في العالم خلال ما سُمي الحرب على الإرهاب.

لم يكن هناك شيء من «مردود السلام» الذي وعدت به الولايات المتحدة بانتهاء الحرب الباردة، لا للأمريكيين ولا لبقية العالم.

ماذا لدينا هنا؟ كان الشعب الأمريكي خلال ما يقرب من نصف قرن يجري تلقينه أن الحرب الباردة، بما في ذلك الحرب الكورية وحرب الفيتنام، والميزانيات العسكرية الضخمة، والغزوات الأمريكية وإسقاط الحكومات - هذه الأعمال التي اطلع عليها الأمريكيون - كانت كلها من أجل مكافحة الشر ذاته: مؤامرة الشيوعية الدولية ومقرها الرئيسي في موسكو.

ولكن الاتحاد السوفييتي ما لبث أن انحل وانحل أيضاً حلف وارسو، وأصبحت الدول التابعة في أوروبا الشرقية دولاً مستقلة، بل إن الشيوعيين السابقين أصبحوا رأسماليين.

مع ذلك لم يتبدل شيء في السياسة الخارجية الأمريكية. بقي حلف الأطلسي الذي كان تشكيله - كما قيل لنا - من أجل حماية أوروبا الغربية من غزو سوفيتي،

حتى هذا الحلف بقي بل ازداد حجماً وقوة عسكرية، وتحول إلى معاهدة ترتكز إلى دواليب يمكن دحرجتها في أي اتجاه ملائم لسياسة واشنطن الراهنة - أي بدأ يقوم بدور التابع للولايات المتحدة الذي يحكم البلقان باعتبارها محمية، ويستغل ميثاقه لتبرير انضمام الدول الأعضاء فيه إلى الولايات المتحدة في غزوها لأفغانستان.

وبينما أغلقت روسيا قواعدها التي أقيمت في أوروبا الشرقية وفيتنام وكوبا خلال الحرب الباردة، كانت الولايات المتحدة تقيم قواعد عسكرية في الأراضي التي كانت تشكل الاتحاد السوفييتي السابق، وفي مناطق أخرى من العالم. وبينما أغلقت روسيا محطة إذاعتها التجسسية في (لورد Laurdes) بكوبا، كانت الولايات المتحدة تبني محطة قوية للتنصت على الاتصالات في لاتفيا، على الحدود الروسية، كجزء من نظام واشنطن لاستراق السمع على صعيد العالم كله.

الأمر كله كان لعبة. فالاتحاد السوفييتي وشيء كان يسمى الشيوعية، لم يكن بحد ذاته هدف الهجمات الأمريكية على الصعيد العالمي. إذ لم تكن هناك قط مؤامرة شيوعية دولية. العدو كان، ويبقى، أية حكومة أو حركة أو حتى فرداً يعترض طريق توسع الإمبراطورية الأمريكية، تحت أي اسم تعطيه الولايات المتحدة للعدو - شيوعي، أو دولة مارقة، أو مهرب مخدرات أو إرهابي..

هل الولايات المتحدة ضد الإرهاب؟

هل علينا الآن أن نعتقد بأن الإمبراطورية الأمريكية ضد الإرهاب؟ كيف يصف المرء رجلاً يفجر طائرة ويقتل فيها ٧٣ مدنياً لأسباب سياسية، ويحاول اغتيال العديد من الدبلوماسيين، ويطلق قذائف المدافع على سفن راسية في مرافىء أمريكية، ويضع قنابل في العديد من المباني التجارية والدبلوماسية في الولايات المتحدة وخارجها؟ لقد وقع عشرات من هذه الأعمال. اسم الرجل (اورلاندو بوش Orlando Bosch) وهو كوبي يعيش في مدينة ميامي، ولم يتعرض لمضايقات من السلطات. ذات يوم أطلقت ميامي اسمه على أحد الأيام تكريماً له - اسم (يوم

الدكتور اورلاندو بوش)[١٦]، أُفرج عنه من السجن في فنزويلا عام ١٩٨٨، بعد أن سجن لتفجيره طائرة، والسبب جزئياً الضغط الذي تعرض له من السفير الأمريكي في ذلك الحين (اوتو ريش Otto Reich) الذي كان الرئيس بوش عيّنه في منصب رفيع في وزارة الخارجية الأمريكية.

بعد عودة بوش Bosch إلى الولايات المتحدة في عام ١٩٨٨، أدانته وزارة العدل باعتباره إرهابياً شديد العنف، وكانت كل الإجراءات مهيأة لترحيله، ولكن الرئيس بوش الأب أوقف ترحيله بمساعدة ابنه جيب بوش في فلوريدا[١٧]. وهكذا، هل الرئيس بوش الثاني وعائلته ضد الإرهاب؟ أجل، إنهم ضد الإرهابيين الذين ليسوا حلفاء الامبراطورية.

الطائرة التي فجرها (بوش Bosch) في عام ١٩٧٦ كانت طائرة كوبية. وهو مطلوب في كوبا بسبب ذلك وبسبب جرائم أخرى خطيرة، وقد طلب الكوبيون تسليمه لهم. كان هو بالنسبة إلى كوبا مثل بن لادن بالنسبة للولايات المتحدة. ولكن الولايات المتحدة رفضت تسليمه. ولنتصور ماذا كان رد فعل الولايات المتحدة لو أن بن لادن ظهر في كوبا ورفض الكوبيون تسليمه. ولنتصور رد فعل الولايات المتحدة لو أن هافانا أعلنت إطلاق اسم بن لادن على يوم من الأيام؟.

يمكننا أن نشكك أكثر بالتزام واشنطن مكافحة الإرهاب في ضوء دعمها للألبان الاثنيين في كوسوفو الذين يشكلون جيش تحرير كوسوفو. لقد ارتكب جيش تحرير كوسوفو العديد من الهجمات الإرهابية على مدى سنوات في أنحاء مختلفة من البلقان من أجل تنفيذ برنامجه السياسي - الاثني، ولكنه كان حليفاً للولايات المتحدة لأنه يهاجم الأشخاص الذين لا ترضى عنهم واشنطن. وهذا رغم أن جيش تحرير كوسوفو له علاقات أيديولوجية وشخصية مع بن لادن والقاعدة، ورغم أن وزارة الخارجية الأمريكية صنفته كمنظمة إرهابية[١٨].

علاوة على ذلك، فإن الفيتناميين، والكمبوديين واللاووسيين المقيمين في الولايات المتحدة موّلوا وحرضوا مواطنيهم المقيمين في الخارج على إلقاء القنابل ومهاجمة حكوماتهم ومواطنيهم، على أمل زعزعة استقرار تلك الحكومات، وكانوا

في بعض الأحيان يسافرون من الولايات المتحدة إلى تلك البلدان لكي ينفذوا هم بالذات الهجمات. كانت تلك الأعمال - وتعريفها أنها أعمال إرهابية - ترتكب بموافقة ضمنية من الحكومة الأمريكية، التي كانت تغض البصر عن قانون الحياد الذي يحظر على المواطنين الأمريكيين أو المقيمين في الولايات المتحدة استخدام القوة لإسقاط حكومة أجنبية[١٩].

لقد تحدث جورج دبليو بوش أيضاً بحماسة ضد إيواء الإرهابيين «إن الذين يوفرون مأوى للإرهابيين إنما يهددون الأمن القومي للولايات المتحدة»[٢٠]. هل كان فعلاً يعني ما يقول؟.

لابد لنا من طرح السؤال: أي بلد في العالم يأوي إرهابيين أكثر من الولايات المتحدة؟ إن اورلاندو بوش ليس إلا واحداً من كوبيين عديدين مناهضين لكاسترو يقيمون في ميامي وارتكبوا مئات الأعمال الإرهابية في الولايات المتحدة، وفي كوبا وفي أماكن أخرى، كل أنواع إشعال الحرائق، ومحاولات الاغتيال وإلقاء القنابل. لقد آوتهم الولايات المتحدة ووفرت لهم السلامة خلال عقود من السنين. كذلك وجد عدد كبير من الإرهابيين الآخرين الأصدقاء ومرتكبي أعمال التعذيب ومنتهكي حقوق الإنسان من أبناء غواتيمالا والسلفادور وهاييتي وأندونيسيا وأماكن أخرى، وهي بلدان كلها حليفة للإمبراطورية[٢١].

لقد كانت وكالة المخابرات المركزية منهمكة في البحث عن الإرهابيين في كهوف جبال أفغانستان بينما كانت في الوقت ذاته تجلس في مقاهي مدينة ميامي لتناول المشروبات مع الإرهابيين.

المافيا الإمبريالية:

ماذا نستنتج من كل ذلك؟ وكيف يمكننا أن نفهم السياسة الخارجية للولايات المتحدة؟ إذا أراد أحدنا أن يؤلف كتاباً عنوانه «الإمبراطورية الأمريكية من أجل المغفلين» فإن الصفحة الأولى من الكتاب يجب أن تقول: لا تبحث قط عن العامل

الأخلاقي، فليس للسياسة الخارجية الأميركية عامل أخلاقي مزروع في حمضها النووي (DNA). يجب أن ينظّف الإنسان ذهنه من ذلك المتاع الذي يعترض طريق الرؤية إلى ما وراء الشعارات (Cliches) وعبارات الاسترضاء.

يصعب على معظم الأمريكيين والذين يحبون الأمريكيين في سائر أنحاء العالم أن يتقبلوا فكرة كهذه، فهم يرون القادة الأميركيين على شاشات التلفزيون مبتسمين وضاحكين، ويروون النكت، ويرونهم مع عائلاتهم، ويسمعونهم وهم يتحدثون عن الله والحب، عن السلام والقانون، عن الديموقراطية والحرية، عن حقوق الإنسان والعدالة، وحتى عن لعبة البيسبول. هؤلاء القادة يعرفون كيف يدينون الفظائع التي ترتكب في العالم بعبارات ملتبسة، مع بعض الكلمات الصحيحة التي يودّ الناس المحترمون سماعها، فقط باللفظة المناسبة التي تُظهر مدى تأثرهم، فكيف يمكن لمثل هؤلاء الناس أن يكونوا وحوشاً، وكيف يمكن وصفهم بعدم الأخلاق؟.

لهم أسماء مثل اسم جورج، وديك، ودونالد، ولكن لا يوجد اسم واحد من قبيل محمد أو عبد الله. جميعهم يتكلمون الإنكليزية، والذين يحملون اسم محمد أو اسم عبد الله يقطعون أيدي الناس عقوبة على السرقة. ويعلم الأميركيون أن ذلك شيء مرعب. فالأميركيون مؤمنون ولا يقبلون ذلك، ولكن الأشخاص الذين يحملون اسم جورج وديك ودونالد يلقون القنابل العنقودية على المدن والقرى، والكثير من هذه القنابل التي لم تنفجر تتحول إلى ألغام أرضية، ولا يمضي وقت طويل جداً قبل أن يلتقط أحد الأولاد واحدة منها أو يدوسها بقدمه وبالتالي يفقد ذراعه أو ساقه أو كليهما، وأحياناً يفقد بصره، في حين أن القنابل العنقودية التي تنفجر فعلاً تخلق نوعاً خاصاً بها من السرعة العالية وتسبب الرعب الشديد.

ولكن هؤلاء الرجال ربما لا يكونون غير أخلاقيين إلى هذا الحد لأنهم شبه أخلاقيين. فالمسألة أنهم لا يشعرون بالسرور عندما يتسببون بالكثير من الموت والمعاناة. المسألة هي مجرد أنهم لا يهتمون.. والشيء ذاته يمكن أن يُقال عن شخص

اجتماعي. فمادام الموت والمعاناة يخدمان مشروع الإمبراطورية، ومادام الأشخاص المعنيون والشركات المعنية تجمع الثروات والسلطة والامتيازات والمكانة الاجتماعية، ومادام الموت والمعاناة لا يصيبانهم ولا يصيبان الأشخاص المقربين منهم.. إذاً فإنهم فقط لا يهتمون بما يحدث لأناس آخرين، من ضمنهم الجنود الأميركيون الذين يعرفون أنهم زُج بهم في الحروب، والذين يعودون منهم إلى الوطن - أي الذين يتاح لهم العودة أحياء - مصابين بمرض العامل البرتقالي أو وباء حرب الخليج الذي يفتك بأجسادهم. إن القادة الأميركيين ما كانوا ليحتلوا المناصب التي هم فيها لو كانوا يعبؤون بأمور كهذه.

عندما كنت أؤلف كتابي «الدولة المارقة» خلال العامين ١٩٩٩ و٢٠٠٠ استعملت عبارة «الإمبراطورية الأمريكية» بشيء من الحذر لأنها لم تكن مألوفة في الاستعمال ولم أكن متأكداً من أن الرأي العام الأميركي كان مستعداً تمام الاستعداد لتقبّل الفكرة. ولكن ما كان ينبغي لي أن أكون حذراً إلى هذا الحد. إن فكرة هيمنة الولايات المتحدة على العالم صارت موضوع بحث ليس فقط بصورة علنية بل بفخر أيضاً من قِبَل مؤيدي الإمبراطورية المفكرون الأميركيون البارزون أمثال (دنيش دسوزا Denish Dsouza) من مؤسسة (هوفر Hoover) الذي كتب مقالة عنوانها «مديحاً للإمبراطورية الأميركية» وفيها حاجج بأن «أميركا هي القوة الإمبريالية الأكثر شهامة في التاريخ»[٢٢].

لقد تحدث الكاتب الصحفي (تشارلز كروتهامر Charles Krauthammer) عن «توجه أميركا الإمبريالي الرؤوف»[٢٣].

إن (مايكل هيرش Michael Hirsch) رئيس تحرير مجلة «نيوزويك» أضاف مايلي إلى كورس أغاني حب الذات: «يجب على حلفاء الولايات المتحدة أن يتقبلوا أن بعض أحادية الولايات المتحدة هو أمر لا مفر منه، بل هو مرغوب فيه. إن ذلك يشمل بصورة رئيسية قبول واقع جبروت أميركا، وهم يشكرون حظهم لكونهم تاريخياً محميين من قوة رؤوفة نسبياً إلى هذا الحد»[٢٤].

سبق أن كتب (روبرت كاغان Robert Kagan)، وهو من كبار المستنيرين في مؤسسة السياسة الخارجية الأميركية مايلي: «والحقيقة هي أن الهيمنة المطبوعة على حب الخير التي تمارسها الولايات المتحدة هي لخير جزء واسع من سكان العالم. ومن المؤكد أنها ترتيب دولي أفضل من جميع البدائل الواقعية»[٢٥].

بهذه الطريقة يتمكن الناس الملتصقون بالسياسة الخارجية الأميركية أن يتعايشوا معها، فهم يستنتجون، ويُعلنون، وربما يعتقدون، أن سياسات من هذا القبيل تنتج قوة ذات طابع إنساني وإمبراطورية مستنيرة وتجلب النظام والازدهار والسلوك المتمدن في كل مكان، وإذا أُرغمت الولايات المتحدة على خوض حرب فإنها تخوضها بطريقة ذات طابع إنساني.

لابد أن يكون القارىء قد لاحظ أن هذا الكتاب يوثق بأدق التفاصيل المقابل الدقيق، مظهراً العنف والقسوة البالغين وقمع التغيير الاجتماعي، والتداعيات الكثيرة الأخرى الكريهة لتدخلات الولايات المتحدة في شؤون أناس في سائر أنحاء الكرة الأرضية على مدى نصف قرن.

يبدو كتّاب الإمبراطورية فاقدين لحس المسؤولية الأخلاقية كالمسؤولين في البيت الأبيض وفي البنتاغون. وفي نهاية الأمر إن جزيئات اليورانيوم المنضَّب لا تستقر داخل رئاتهم لتطلق إشعاعها خلال بقية حياتهم. إن البنك الدولي وصندوق النقد الدولي ليسا مفلسين في اقتصادهما ولا تنخفض خدماتهما الأساسية، وأُسر العاملين فيهما لا يجوبون الصحراء كلاجئين.

إن قادة الإمبراطورية، المافيا الإمبريالية - جورج دبليو بوش، دونالد رامسفيلد، ريتشارد تشيني، كولن باول، كوندوليزا رايس، بول وولفوفيتز، ريتشارد بيرل وغيرهم وكتّابهم أيضاً هم أشخاص لا يقلّون تعصباً وأصولية عن أسامة بن لادن. الله أكبر! الله أكبر!.. الولايات المتحدة الأميركية! الولايات المتحدة الأميركية! الولايات المتحدة الأميركية!.

إن كاغان وهو مفكر يهندس النزعة التدخلية التي تسعى إلى فرض برنامج المحافظين الجدد على العالم، بأية طريقة ضرورية، قد أعلن أن الولايات المتحدة يجب

أن ترفض الالتزام بمواثيق دولية معينة مثل محكمة الجنايات الدولية واتفاق كيوتو بشأن الانحباس الحراري العالمي. وهو يقول: إن الولايات المتحدة «يجب أن تؤيد الإشراف على التسلح، ولكن ليس دائماً بما يخصها. لابد لها من ازدواجية المعايير»[٢٦].

هنالك أيضاً (روبرت كوبر Robert Cooper) وهو دبلوماسي بريطاني رفيع المستوى، ومستشار لرئيس وزراء بريطانيا توني بلير. وهو كتب ما يلي:

«التحدي الذي يواجه عالم ما بعد العصرنة هو أن يعتاد على فكرة ازدواجية المعايير. عند التعامل مع المزيد من أنواع الدول قديمة الطراز الواقعة خارج القارة الأوروبية التي تعيش مرحلة ما بعد العصرنة، نكون بحاجة إلى العودة إلى الأساليب الأكثر خشونة في زمن غابر: القوة، الهجوم الاستباقي، الخداع، كل ما هو ضروري للتعامل مع الذين لا يزالون يعيشون في عالم القرن التاسع عشر حيث كل دولة تهتم بنفسها»[٢٧].

تعبير «كل دولة تهتم بنفسها» الذي استخدمه يمكن فهمه بصورة أفضل أنه يعني أية دولة غير مستعدة للموافقة على برنامج الإمبراطورية الأمريكية وأفضل أصدقاء زميل المدرسة المتجبر في لندن.

هذا هو الوضع ازدواجية المعايير موجودة. القاعدة الذهبية: افعل للآخرين ما تريد أن يفعله لك الآخرون قد زالت.

تواجه المافيا الإمبريالية ومفكرو بلاطها من أمثال كاغان وكوبر وقتاً صعباً في تسويق أو الدفاع عن رؤيتهم للعالم على أساس من المعايير الشرعية والأخلاقية أو المعايير المنصفة. ولهذا يقررون أنهم غير ملزمين بمثل هذه المعايير.

الذهب السائل، مرة أخرى

الاحتلال الأميركي لأفغانستان كان خدمة لهدف إقامة حكومة جديدة تكون منسجمة انسجاماً كافياً مع أهداف واشنطن الدولية، بما في ذلك إقامة قواعد عسكرية ومحطات تنصت وإدارة خطوط أنابيب نفط وغاز آمنة من بحر قزوين عبر أفغانستان بعد تهدئة الأحوال في هذا البلد.

كان بارونات النفط الأميركيون منذ سنوات قد وجهوا أبصارهم إلى احتياطيات النفط والغاز الكبيرة حول بحر قزوين، مرتئين إنشاء خط عبر أفغانستان وباكستان إلى المحيط الهندي. كان رجال النفط صريحين تماماً في هذا الموضوع، وأدلوا بشهادة صريحة أمام الكونغرس حول الأمر نفسه(٢٨).

بعد أفغانستان، وجهوا شهوتهم إلى احتياطيات النفط الأكبر في العراق. مرة أخرى، كان لابد من تهيئة الرأي العام الأميركي. إن (جون لوكاريه John Le Carre) كاتب روايات الجاسوسية المشهور لاحظ: «كيف أن بوش وجماعته أفلحوا في تحويل غضب أميركا من بن لادن إلى صدام حسين في واحدة من أكبر خدع التلاعب بالعلاقات العامة في التاريخ»(٢٩).

عندما كان هذا الكتاب يُكتَب في شهر نيسان ٢٠٠٣، كانت الولايات المتحدة قد أتمت لتوّها قصف المجتمع العراقي المحاصَر وغزوه والاستيلاء عليه، متسببة بدمار كبير، وقتل الآلاف من الناس الأبرياء - مدنيين وعسكريين - في هذه العملية ومسببة لأعداد أخرى لا تحصى من الناس تقطيع الأطراف والأذى بشكل آخر. لقد قال وزير الحرب الأميركي دونالد رامسفيلد، في دفاعه عن «دقة القصف» الأميركي: «يبدو الأمر وكأنه قصف لمدينة ولكنه ليس كذلك»(٣٠).

نظرت واشنطن إلى نتائج أعمالها العسكرية التي وصفها الآخرون بأنها مرعبة، فأطلقت عليها صفة «التحرير»،لأن نظام صدام حسين قد أطيح به.

قبل ذلك كانت المافيا الإمبريالية قد شرعت بعملية (بروبا غاندا) استمرت سنة لإقناع الأميركيين والعالم أن القوة العظمى الوحيدة في العالم لم يكن أمامها خيار سوى مهاجمة بلد ذي سيادة ومعطّل لم يسبق له أن هاجم الولايات المتحدة، ولم يسبق له أن هدد بمهاجمة الولايات المتحدة، وكان يعرف أن مهاجمة الولايات المتحدة تعني عملية انتحار كاملة وفورية. غرابة مقولة المافيا الإمبريالية لا تكمن فقط في أن العراق يشكل تهديداً - وهذا ما أظهره الانتصار العسكري السهل في الحرب -

وإنما بأن المافيا الإمبريالية كانت تعرف أن العراق لا يشكل تهديداً إطلاقاً. لقد كانت المافيا تروي للعالم قصة بعد أخرى عن كون العراق يشكل تهديداً، بل وتهديداً وشيكاً، تهديداً يزداد خطره مع مرور كل يوم، تهديداً نووياً، تهديداً كيميائياً، تهديداً بيولوجياً، وأن العراق دولة إرهابية، وأن العراق على علاقة بالقاعدة.. إنما لم تكن أية قصة من هذه القصص تساوي شيئاً. لقد أصرت المافيا الإمبريالية مراراً على وجوب أن يوافق العراق على عودة مفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة إلى الأراضي العراقية، وعندما وافق العراق على ذلك أعلنت المافيا الإمبريالية أن ذلك لم يكن بالأمر الجيد كفاية ومضت في عملها بإحباط الجهد.

ذلك أن الحرب هي ما كان البيت الأبيض يرنو إليه، والحرب هي ما حصل عليه بينما أصمَّ أذنيه عن أكبر احتجاجات شهدها العالم ضد الحرب والمعارضة الكاسحة للحرب من قِبل الأمم المتحدة ومفاهيم القانون الدولي والتعاون من أجل كرة أرضية يسودها السلام، هذه المفاهيم التي كسبتها البشرية بشق النفس. يبقى أن نرى ما إذا كانت الهيئة العالمية ستستمر بينما يُساء إليها بكلام مذلٍّ بعيد عن الموضوع حول أهم مسألة يمكن أن تواجهها، أي كون الأمم المتحدة مؤسسة أعلنت في أول جملة من ميثاقها التصميم «على إنقاذ الأجيال القادمة من ويلات الحرب التي جلبت للبشرية مرتين خلال جيل واحد أحزاناً يعجز عنها الوصف».

هل هناك في سياسة واشنطن ما له أي معنى؟ هذه السرعة المفاجئة في خوض حرب دون أن يكون هناك قتال؟ يكون هناك معنى لو فَهِم المرء أن الغزو لم يكن سببه أن صدام حسين شرير أو انه يملك أسلحة الدمار الشامل المزعومة. عندما أخفقت أسابيع من الاحتلال العسكري الأميركي للعراق عن اكتشاف أسلحة من هذا النوع، أعلن البيت الأبيض أن أسلحة الدمار الشامل، على أية حال، لم تكن هي السبب الحقيقي للغزو وأكد للعالم أن ما كانت تفعله أميركا في الحقيقة هو توجيه ضربات مختلفة إلى الإرهاب. قال أحد المسؤولين: «نحن لم نكذب. المسألة كانت فقط مسألة تأكيد على موضوع»[٣١].

بين الأسباب الأخرى للحرب تبديل صدام حسين من قِبَل الولايات المتحدة وإقامة حكومة عميلة، على نحو ما فعلت في أفغانستان. في هذه الحالة حكومة احتلال أميركي تمكّن شركات النفط الأميركية بالتحرك إلى داخل العراق والاستمتاع بوليمة، وفي الوقت ذاته فتح العراق أمام كل أنواع الشركات الكبرى متعددة الجنسيات بينما العراق يأخذ مكانه في نظام عالمي جديد هو نظام الاقتصادات المعولمة، وتضيف الإمبراطورية الأميركية بلداً آخر وبضع قواعد أخرى تنطلق منه لمزيد من السيطرة على الشرق الأوسط ولإعادة تكوينه بأسلوب المافيا الإمبريالية المحبب إلى نفسها الذي لا يلتزم المسؤولية الأخلاقية، والذي من أجله يفترض أن يُنشد أطفال المنطقة أناشيد عظيمة في مقبل الأعوام[٣٢].

إن موافقة الولايات المتحدة على السماح لمفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة بالعودة إلى العراق في كانون الأول عام ٢٠٠٢ لم يكن إلا خدعة للتغلب على معارضة عالمية قوية وغير متوقعة للغزو الأميركي الذي كانت تخطط له واشنطن. إن التفتيش عن الأسلحة خلال ثلاثة شهور قبل بدء الغزو لم يسفر عن شيء من حيث العثور على أسلحة محظورة بطريقة لا لبس فيها. وخلال نحو سبع سنوات في التسعينيات من القرن العشرين كان مفتشو الأمم المتحدة قد وجدوا ودمروا كميات هائلة من الأسلحة الكيميائية والبيولوجية والنووية في العراق.

لقد ذكر (سكوت ريتر Scott Ritter)، كبير مفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة في العراق، في عام ٢٠٠٢:

«إن العراق منذ عام ١٩٩٨ قد نُزِع سلاحه بشكل كبير، ذلك أن ما بين ٩٠ إلى ٩٥٪ من أسلحة الدمار الشامل في العراق قد ثبت أنها أُبيدت. هذا يشمل كل المعامل المستخدمة لإنتاج أسلحة كيميائية وبيولوجية ونووية، وصواريخ بالستية بعيدة المدى، والمعدات ذات العلاقة بهذه المعامل، والغالبية الكبرى من المنتجات التي تخرج من هذه المعامل»[٣٣].

في الفترة ذاتها ذكر محمد البرادعي المدير العام للوكالة الدولية للطاقة الذرية أن وكالته:

«فككت منشآت واسعة النطاق ذات علاقة بالأسلحة النووية. لقد حيّدنا برنامج العراق النووي، وصادرنا مواده القابلة للاستخدام في صنع الأسلحة. لقد دمرنا وأزلنا جميع منشآته ومعداته ذات العلاقة بإنتاج الأسلحة النووية أو حولناها إلى منشآت لا تسبب أذىً»[٣٤].

هكذا إذاً هو خطر العراق المرعب الذي كان لابد من إبادته. لقد كان العراق مجتمعاً أصابه ضعف شديد من جراء اثني عشر عاماً من العقوبات، التي وصفها مستشار الأمن القومي الأميركي (صاموئيل بيرغر Samuel Burger) بأنها «أشد عقوبات فُرضت على دولة خلال تاريخ البشرية»[٣٥].